اسم الدرس : تفسير سورة يس ج٢ | الآيات [١٣ : ٢٣]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد -صلى الله عليه وسلم-، بإذن الله -عز وجل- نستكمل تفسير سورة يس.

كنا قد توقفنا عند قول الله -عز وجل- في بداية القصة: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ }[يس:١٣-١٧].

في المرة الماضية ونحن نتكلم عن مقدمة سورة يس كنا قد ذكرنا أنه من المقدمة ومن خلال بعض الآيات في سورة يس نستطيع أن نفهم الجو الذي نزلت فيه هذه السورة؛ جوٌّ من الاستضعاف، جو فيه نوع من الظلام، أناس طال عليهم الأمد بعيدًا عن الإنذارات { لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ}، وقلنا الراجح أن {ما} نافية وليست موصولة -وإن كان هناك علماء رجحوا أنها موصولة- أي لم يأتيهم النذارة من زمن طويل.

وقلنا أن المجتمعات التي يطول عليها الأمد بدون نذارة تغرق في الشهوات وتغرق في الباطل، ويتحول الباطل إلى نظام يصعب تغييره ويصعب التخلص منه، في هذه الأوقات لدرجة أن من يتكلم بكلمة الحق يقتلوه كما سيأتي معنا في القصة إن شاء الله اليوم عندما قالوا: { اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا } إلى آخر الآيات { قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ} قتلوه!

في هذه الأوقات لابد من أشياء معينة يتعلمها أهل الإيمان ويلتزم بها أهل الإيمان؛ منها ما ذكرناه في المرة الماضية: أن يكون أهل الإيمان على يقين مما هم عليه من حق، لذلك أقسم الله -عز وجل- { وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ }.

قلنا أنه يوجد فارق ما بين أن المؤمن يتكلم عن أشياء سمع عنها أو قرأها وبين أن يتكلم عن أشياء هو يعيشها، معاني معينة هو يعيشها فيكلم الناس عن هذه المعاني التي يراها رأي العين، يكلم الناس عن هذه المعاني التي لمسها بالفعل ولمست قلبه.

فتأتي هذه القصة بعد المقدمة لتبين نموذجًا لكيف أن هناك رسلًا ذهبت لأقوام كانوا أيضًا مغرقين في الشهوات مبتعدين عن الحق، أصبح الباطل عندهم منظم لدرجة يصعب معها تغييره، وكيف تمت الدعوة في هذه الأوقات؟ ما الذي يجب أو ما ينبغي على الدعاة أن يستحضروه من هذه المعاني؟

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾}

هذا المثل للدعاة وللمعرضين

فقال الله -عز وجل- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}

- إما {اضرب لهم} لقريش الذين أعرضوا وأوغلوا في الإعراض بعيدًا عن الدعوة، فاضرب لهم مثلاً بهذه القرية وما حدث لها، وشؤم معصيتهم، وعاقبة إنذارهم، ماذا حدث لهم! فحذِّرهم أن يسيروا على نهجهم فبالتالي يكون مصيرهم مثل مصيرهم، لو ساروا على نفس طريقهم سينتهي بهم المآل إلى نفس المصير، فليس بين الله -عز وجل- وبين أحد نسبًا، فلو أعرضوا ينزل الله -عز وجل- عليهم العذاب.
- أيضًا { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} اضرب للمصلحين في كل مكان نموذجًا أنهم ليسوا فقط من حُورِبُوا ومن عُودُوا ومن أوذوا، بل هناك من الرسل من أرسلوا إلى أقوام أغرقوا في الإبعاد وفي الإعراض عن دين الله -عز وجل-، ولكنهم واجهوا الباطل بدعوة الحق ونصروا دين الله -عز وجل- مهما كانت الظروف.

فهذا المثل المضروب للدعاة، للعاملين لدين الله، للمؤمنين، هو أيضًا مضروب للمستكبرين المعرضين، أيضًا مضروب لمن أراد الإصلاح ولو كان فردًا في زمن انتشر فيه الباطل، فيقول الله -عز وجل-: {واضرب لهم} لكل هؤلاء مثلًا.

والله -عز وجل- سننه -سبحانه وتعالى- في خلقه ثابتة تتكرر، فعندما يضرب لنا ربنا مَثَلًا بنموذج إصلاحي، هذا النموذج الإصلاحي يتكرر كلما تكررت مثل هذه الظروف، فنموذج فتية الكهف يتكرر

كلما تكررت هذه الظروف، ونموذج صاحب الجنتين الكافر عندما يأتيه المؤمن ويدعوه أيضًا تتكرر هذه النماذج.

ومن حكمة الله -سبحانه وتعالى- في غالب هذا القصص البعيد عن الرسل والأنبياء -حتى أحيانًا يأتي معه الرسل كما سيأتي معنا اليوم- **لا يذكر أسماء، ولا تعيين الأشخاص، ولا تحديد الأماكن؛ لأن الغرض المقصود أن هذا نموذج يتكرر**، كلما اجتمع أهل باطل وحاولوا أن يحاربوا هذا الدين يظهر نموذج من الرجال المؤمنين الذين يقيّضهم الله -عز وجل- لنصرة الدين، ينصرون هذا الدين.

لذلك رجل مجلس اليوم قال الله -عز وجل- عنه: {وجاء رجل} لم يذكر اسمه، أيضًا في سورة القصص {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}[القصص:٢٠]، وهنا {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى}، ومؤمن آل فرعون لا نعلم اسمه! إن الله -عز وجل- يقيض رجالًا ينصرون هذا الدين أيًا كانت الأسماء وأيًا كانت الوقائع فالنماذج تتكرر.

فعندما يقول ربنا هنا: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}، هذه الأمثال تتكرر مع كل قرية عتت وتجبرت وطغت؛ يقيض الله -عز وجل- رجالًا يقومون بنصرة هذا الدين قد يستشهدون، وقد ينصرون.

بداية التغيير

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}، {إذ} هذه اللحظة التغييرية التي تذكر دائمًا في القرآن، وكأن البداية -بداية التذكر- ينبغي أن تكون من هذه اللحظة {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}[القلم:١٧] سورة القلم، كأن هذه اللحظة كانت لحظة تغيير في حياتهم، أيضًا في قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ}[آل عمران:١٥٢] هذه لحظات ينبغي تذكرها.

فكأن القرية كانت تعيش بطريقة معينة وبنظام معين، ومستمرة بدون تغيير إلى أن جاء المرسلون؛ بدأ التغيير يحدث في هذه القرية {إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} وكأن الله -عز وجل- لن يترك قرية بدون إنذار {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}[الإسراء:١٥] يرسل الله -عز وجل- رسله لينذروا القرى.

الله يصطفي رسل لتذهب تدعو الناس

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا} المرسلون هم الذين جاءوا إلى القرية، فهذا شعار للدعاة أنهم هم الذين ينتشرون ويذهبون، لذلك قال الله -عز وجل-: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ }[الفرقان:٢٠] عندما اعترضوا {وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}[الفرقان:٧] بالرغم من أن الأسواق هي أبغض البقاع إلى الله -عز وجل- إلا أن الرسل كانوا يمشون فيها، ليعلّموا الناس دين الحق وليتعاملوا كبشر.

وأي مكان تتواجد فيه فأنت مطالب أن تظهر دين الله -عز وجل-، والتعامل الشرعي في هذا المكان، عندما يعمل أهل الدين في هذا المكان يبينون للناس ما الذي يرضي الله -عز وجل- في هذا المكان؛ هل يرضيه ترك هذا المكان؟ هل هناك أعمال معينة تُفعَل في هذا المكان؟ كما قلنا في سورة المطففين أنه في بعض الآثار لما نزلت سورة المطففين قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- في السوق، نزل على أهل السوق وقرأ عليهم {ويل للمطففين}[1].

فهنا {إذ جاءها} هم الذين ذهبوا بأنفسهم إلى مكان القرية.

{إذ جاءها المرسلون} المرسلون: بالطبع اختلف العلماء؛

- هل مرسلون من عند الله -عز وجل-؟ هل هؤلاء رسل أرسلهم الله
- أم رسل سيدنا عيسى؟ أي أن سيدنا عيسى هو الذي أرسل الرسل،

غالب السياق يرجح أن هؤلاء رسل من عند الله، أيًا كانوا فالخلاف بين المفسرين موجود.

{إذ جاءها المرسلون} بعض علماء اللغة فرَّقْ بين "جاءها" و"أتاها"، وقال أن {جاءها}: فيها مشقة، أما "أتاها": فيها سهولة ويسر، فـ {جاءها المرسلون} بذلوا جهدًا ليصلوا إلى هذه القرية لأن هناك قرىً عتت عن أمر ربها وظلمت وطغت، فربنا -سبحانه وتعالى- عندما يصطفي ويختار ثلاثة من المرسلين ليذهبوا إلى هذه القرية ، هذا اصطفاء لهؤلاء الرسل.

---

١ كانَ أهلُ المدينةِ تجّارًا يطفّفونَ وكانَت مُبايَعتُهم المنابذَةُ والملامَسَةُ والمخابَرَةُ فنزلَت وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ فخرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فقرأها عليهم الزيلعي (ت ٧٦٢)، تخريج الكشاف ١٧١/٤ • غريب

عندما قال ربنا –سبحانه وتعالى– لسيدنا موسى: { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ }[النازعات:١٧]، يخبره ربنا أن هذا طاغية، فأنا أرسلتك إليه. **فكلما يتجبر الظالم ويكون طاغية؛ يصطفي الله –عز وجل– رجالًا يقفون أمامه**؛ فاصطفى الله –عز وجل– كليمه موسى ليقف أمام فرعون وليذهب إليه، فكذلك هذه القرية الظالمة التي عتت عن أمر ربها وتجبرت، أرسل الله –عز وجل– إليها واصطفى هؤلاء المرسلين ليذهبوا إليها.

{إذ جاءها المرسلون} وهذه إشارة إلى أنه لابد أن يُنذَر الطغاة ويُذهَب إليهم ويُدْعَوا إلى دين الله –عز وجل–.

{إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾}

{ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ } وهذا دليل على قمة الطغيان، أن واحدًا بالنسبة لهم ليس كافيًا، فأرسل الله إليهم اثنين { فَكَذَّبُوهُمَا }، بالرغم من أن الرسل معهم آيات ومعهم بينات.

وجاءت فاء التعقيب السريعة { فَكَذَّبُوهُمَا }، لا نريد أن نسمع، لم يقل ربنا { إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ } ثم كذبوهما، بل قال { إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا }، أعرضوا عن ذكر الله –عز وجل–، لم يلبثوا ولم يتدبروا في الآيات ولم يتفكروا، بل مباشرة قابلوا الرسالة بالتكذيب { فَكَذَّبُوهُمَا }.

لم يقل الله –عزَّ وجل–: { إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا } فأهلكناهم، لا، بل ماذا قال ربنا؟ انظر لحلم الله –عزَّ وجلَّ– على العباد، كان واحدًا كافيًا، وكان من الممكن عندما كذَّبوا واحدًا أن يهلكهم الله، حيث قامت عليهم النِذَارة.

ويدل هذا ألا يعجل الإنسان على الناس، مرة واثنتين وثلاثة، {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا}، فقال الله –عزَّ وجلَّ– {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} الأمور تتضح أكثر، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ}[الأنفال:٤٢]. لم يقل فأهلكناهم بالرغم من أنهم كذَّبوا رسولين، ولو كذَّبوا رسولًا واحدًا يُهْلَكُوا، فقال الله –عزَّ وجلَّ–: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} [يس : ١٤].

وانظر لقول الله -عزَّ وجلَّ- {فَعَزَّزْنَا}، لم يقل فأرسلنا ثالثًا، بل قال: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} **ما ينبغي على الدعاة في وقت انتشار الظلم وانتشار الشهوات وانتشار الظلام في المجتمع؛ لابد أن يتعاونوا وأن يُعَزِّز بعضهم بعضًا**، فقال الله -عزَّ وجلَّ-: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}، أرسلنا إليهم ثالثًا ليُعَزِّزهم ويُقَوِّيهم، ويكون دافعًا لهم، ويغطي ويجبر ما وقع منهم، وكأن كل واحد منهم من الممكن أن يتوزع في مكان، أو يتعاونون؛ كل منهم يبين شيئًا معينًا، يُقسِّمون الناس، يُقسِّمون المناطق، هناك تعاون بينهم {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}.

فوجود الدعاة مع بعضهم البعض لابد أن يكون تعزيزًا لا تنقيصًا، وجود الدعاء مع بعضهم البعض في مكان لابد أن يكون تعزيزًا لوجودهم، على سبيل المثال من الطبيعي حتى في الأدوية أو في غير ذلك أن يقال في التفاعلات بأن ناتج جمع واحد مع واحد يساوي اثنين، وأحيانًا عندما يوجد مثلًا مُرَكب مع مُرَكب فإن ذلك يؤدي لتضاعف القوة، فواحد مع واحد يساوي أربعة أو خمسة، وأحيانًا يضاد بعضهم بعضًا فيكون واحد مع واحد يساوي صفرًا!

من الطبيعي أن وجود الدعاة مع بعضهم البعض يكون تعزيزًا؛ قوتي مضافة إلى قوتك مع توفيقٍ من الله؛ لأن (يد الله مع الجماعة)[٢]، فواحد مجموع مع واحد يساوي عشرة!! الدعاة مع بعضهم وأهل الإيمان مع بعضهم، دعم ربنا -سبحانه وتعالى- لهم يكون عاليًا جدًا (يد الله مع الجماعة)؛ لأن كل فرد بمفرده يقتصر على قوته، أما عندما يصبح الاثنين مع بعضهما أو ثلاثة مع بعضهم، لا يكون حاصل إضافة واحد إلى واحد مع واحد يساوي ثلاثة؛ بل واحد مع واحد مع واحد، وكل واحد وقوته بجانب توفيق الله -عزَّ وجلَّ- ويد الله -عزَّ وجلَّ- مع الجماعة تحدث فرقًا.

فقال الله -عزَّ وجلَّ- {فَعَزَّزْنَا} وفي قراءة {فَعَزَرْنَا}.

- {فَعَزَّزْنَا} أي قوينا،
- {فَعَزَرْنَا} أي أصبحوا في عِزَّة، فالعَزة والغَلبة والظُهور يكون بالتعاون، وضد ذلك الانتكاس والنقوص والخفاء يكون بالتناحر {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[الأنفال:٤٦]، أي تناحرٍ بين أهل الإيمان في مكان فاعلم قطعًا أنهم سينهزمون.

٢ [عن عرفجة بن ضريح الأشجعي:] سيكونُ بعدي هَناتٌ وهَناتٌ فمَن رأيتُموه فارَق الجماعةَ أو يُريدُ أنْ يُفرِّقَ بينَ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمرُهم جميعٌ فاقتلوه كائنًا مَن كان فإنَّ يدَ اللهِ مع الجماعةِ وإنَّ الشَّيطانَ مع مَن فارَق الجماعةَ يرتَكِضُ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٤٥٧٧ • أخرجه في صحيحه

بل عَدَّه بعضُ السلف من سُنن الله -عزَّ وجلَّ- "أن ما تنازع أهلُ الإيمان إلا علا أهلُ الباطل علي أهل الإيمان"، أظن الإمام الشعبي كان ذكر هذه القاعدة، أن أي تنازع بين أهل الإيمان في مكان يعقبه مباشرة علو أهل الباطل على أهل الإيمان، فقال الله -عزَّ وجلَّ-: {فَعَزَّزْنَا}.

ومن اللطائف الجميلة التي ذكرها الإمام الزمخشري في تفسيره يقول: أن المفعول به محذوف؛ الله قال عززنا بمن؟ لم يقل الله -عزَّ وجلَّ- فعززناهما، ماذا قال؟ {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا}، كان متوقعًا أن يقول ربنا: فعززناهما؛ أي أرسلنا لكلاهما واحدًا يُعززهما، لكن الزمخشري يقول: "المفعول به حُذِف؛ لأنه ليس المقصد تعزيز الرسل وإنما المقصد تعزيز الحق".

فالمفعول به هنا هو "الحق" محذوف، **أي شيء يُعزز الحق نفعله سواء بوجودنا أو بغيابنا**؛ أي لو تعزيز الحق أن أسكت، إذًا أسكت، لو تعزيز الحق أن أتكلم، إذًا أتكلم؛ إذًا على حسب اختلاف المراد من الله -عزَّ وجلَّ- في تعزيز الحق نفعل.

فأحيانًا يكون من تعزيز الحق أنك تسكت، إذًا تسكت على بعض الخلاف مع أخيك، وأحيانًا من تعزيز الحق أن تتكلم، وأحيانًا من تعزيز الحق أن تتواجد، وأحيانًا أن تنصرف، وأحيانًا أن تتوزع، على حسب الذي يفيد دين ربنا -سبحانه وتعالى-، الذي يفيد دين ربنا نفعله.

مثلاً عندما تُقام الصلاة واحد يتقدم للإمامة، فمن التعزيز أننا نترك واحدًا يتقدم للإمامة، وليس جميعنا يتقدم للإمامة؛ ليس من التعزيز أننا جميعنا نتشاجر ونتنازع على الإمامة، إذًا من التعزيز في هذا الموقف السكوت، وأن واحداً فقط يتقدم للإمامة، الأفضل والأعلم والأتقى هو الذي يُقدم للإمامة.

فقال الله -عزَّ وجلّ-: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}؛ **فالقوة والغَلبة والتعزيز يكون بالتعاون والتناصر**، هذه سنة من سنن ربنا -سبحانه وتعالى-، أن **أي تنازع أي خلاف مباشرة يعقبه الفشل**، والفشل ذُكر في القرآن مقرونًا بالتنازع {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا} [الأنفال : ٤٦]، والتنازع ذُكر في القرآن مقرونًا بالفشل في أكثر من موضع في كتاب الله -سبحانه وتعالى-. فقال الله -عزَّ وجلَّ- : {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}.

نحن ذكرنا أنه يُستفَاد من هذه القصة ومن خلال السورة ما ينبغي على الدعاة أن يفعلوه في وقت الفتن وانتشار الظلام والاستضعاف، والمجتمع طال عليه الأمد بعيدًا عن النِّذَارة، في وسط هذه الأشياء ما الذي ينبغي على الدعاة أن يفعلوه؟

قلنا رقم واحد أن يكونوا على بيّنةٍ ويقينٍ من أمرهم؛ هم الذين يكونون على يقين رقم واحد، لذلك كانت البداية في السورة بقسم من الله أنك على الحق {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [يس :٢-٣]، ونفس الكلمة التي قيلت للنبي ﷺ؛ هم قالوا إننا لمن المرسلون، {إِنَّا إِلَيْكُمْ} التأكيد هذه الكلمة التي أقسم الله -عزَّ وجلَّ- عليها في أول السورة، هي نفس الكلمة التي قالها الرسل.

إذًا أول شيء ينبغي على الدعاة في وقت انتشار الظلام والفتن، أن يكونوا هم على يقين بحيث أنهم عندما يقوموا بالدعوة لا يهتز أحد؛ ليس عندما تحدث فتنة يهتزوا؛ ويسأل أحدهم ويقول ماذا إذا لم نكن نحن علي الحق وهم على الحق، هذه البلبلة لا تحدث لأهل الإيمان الثابتين على الحق في هذا الوقت.

فقال الله -عزَّ وجلَّ- {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} [يس : ١٤]، إذًا أي شيء ينبغي على الدعاة أن يفعلوه لتعزيز الحق، يجب عليهم أن يفعلوه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا} وليس "فقال كل واحدٍ منهم"؛ لأنهم أصبحوا شيئًا واحدًا قالوا مع بعضهم البعض، {فَقَالُوا إِنَّا} بالتأكيد {إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}؛ أكدوا أنهم مرسلون نفس التأكيد الذي جاء في أول السورة {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [يس : ٣]؛ نفس التأكيد، قالوا مع بعضهم البعض؛ ليس هناك تنازع ليس هناك خلاف بينهم، ليس كل شخص يقول لوحده؛ قالوا وكأنهم قالوها في وقتٍ واحد {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}، أيضًا انظر إلي فاء التعقيب لم ينتظروا، لا، بل بعد التكذيب جاء التعزيز قاموا بالدعوة مباشرةً {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}.

إذًا لابد أن يتعاون الدعاة ويكونوا مع بعضهم البعض كأنهم جسد واحد؛ كلماتهم واحدة خاصةً في الأصول، الفروع بالطبع فيها خلاف، **ووضع الخلاف في موطن لا يصح فيه الخلاف أمر خطير، وتضييق الخلاف في موطن يسع فيه الخلاف أيضًا من ضيق العقل**، فإذًا كل شيء له قاعدة.

فهنا الكلام في الأصول وهي دعوة المشركين: لا يوجد خلاف في التوحيد، لا يوجد خلاف في دعوة الجنة والنار، لا يوجد، لماذا يختلفوا؟ فيما يختلفوا؟ الكلام في أصول لا خلاف فيها.

{فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}؛ كلمة {إليكم} كأنكم بشكل خاص الله أرسلنا إليكم؛ لأنكم تَجَبَّرْتم وطغيتم وعتيتم عن أمر الله -عزَّ وجلَّ-، فأرسلنا الله خصيصًا إليكم {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}.

قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾

{قَالُوا} أيضًا استمروا على التكذيب وبالرغم من التعزيز وبالرغم من وضوح الآيات؛ {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} [يس : ١٥]، قالوا ثلاث جمل؛ لما بدأ التعزيز يأتي، بدأ الوضوح في الدعوة يظهر فلم يكتفوا بالتكذيب.

عندما كانوا اثنين ماذا قال الله؟ {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ}، ماذا؟ {فَكَذَّبُوهُمَا} اكتفوا بأن يُكذبوهما، ليسوا مصدقين لهما، التكذيب أنه لا يُصدِّق، ولكن لا يلزم من التكذيب الرد؛ كأن يقول شبهات مثلاً؛ عندما تدعو شخص ويُكَذِّب بما تقول، ليس معنى أنه كذَّب أنه قال شبهات ضد ما تقول، لا، لكن إذا بدأ يقول شبهات ضدك فهذا صَدَّ، أضاف إلي التكذيب الصَّد؛ لذلك قال الله عزَّ وجلَّ : في سورة النحل {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [النحل : ٨٨].

فهناك أُناس تكفر فقط، وهناك أُناس تكفر وتصد؛ عندما جاء الرسول الثالث والتعزيز بدأ يُحدِّث أثره في المجتمع، وبدأ فعلاً التعزيز يكون له أثر في المجتمع، قالوا: لن نكتفي بالتكذيب، لابد أن نضيف الصَّد والشبهات.

الشبهة الأولى: شبهة البشرية

فبدأوا يقولون كلامًا؛ {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، أول شبهة: أنتم مجرد بشر، والاحتجاج ببشرية الرسل هذا أمرٌ تكالب عليه غالب الأمم مرارًا، وكأن هذه الحجة الثابتة لهم، أول شيء أنكم بشر.

ولو كان الله أنزل عليهم ملائكة كان قولهم أنّ هذا لا ينفعنا؛ هذا الدين لا يمكن تطبيقه لأنك مَلَك، أنت لست بشر مثلنا؛ لا تشعر بما نشعر به، أنت تقول كلامًا لا تطبقه.

يأتي الله لهم ببشر يقولون لا نحن نريد ملائكة، ولو أتت إليهم ملائكة يقولون لا نحن نريد بشرًا، لكن من سُنَّة الله –عزَّ وجلَّ– في عباده أن أرسل إليهم بشرًا وهذا الذي يُصْلِحهم.

{ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ }[الأنعام:٩] ولو كان الله نزل ملكًا وجعله على صورة بشر لقالوا إنك بشر! كما شرحنا بالتفصيل في سورة الأنعام، ولو نزل ملكًا في صورته لن يستطيعوا أن يبصروه، ولو رأوه على صورته لاحتجوا وقالوا: كلا هذا ملك ونحن بشر؛ نريد بشرًا لأنهم دائمًا يراوغون.

{ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } فالاحتجاج بالبشرية دائمًا يكون أول دافع يدفع به الأقوام المكذبة.

الشبهة الثانية: شبهة "كيف يعذب الرحمن"

ثم قالوا –حتى بفرض أي من الأمور– { وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ } انتبه من هذه الجملة { وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ }، فكأنهم يقولون للناس نحن مؤمنون بالله، نحن مؤمنون بالرحمن ولكن هؤلاء ليسوا من عند الرحمن، والرحمن لم ينزل شيئًا.

لأنه متى يتكلم الكبراء دومًا؟ متى يتكلم الطغاة كبار المجرمين؟ { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا }[الأنعام:١٢٣] **متى يتكلم أكابر المجرمين؟ عندما يخشون أن الضعفاء يتركوهم؛ لأن الطاغية يظل طاغية بعبودية المستضعفين له**، فعندما يأتي الرسل وينتشلون المستضعفين منهم ويأخذونهم لطاعة الله –عز وجل– إذًا يزول ملكهم! فيبدأ الكبراء بالخوف ببداية انتشار الدعوة واتضاحها، يخاف على ملكه، فيتكلم.

وفرعون لم يتكلم إلا حينما خاف على ملكه، فطالما أنه لم يخف فلا يهم، أول ما بدأ يخاف على ملكه تحدث، وتطور كلام فرعون فتكلم في البداية مع خاصة الخاصة، ثم مع الخاصة، ثم مع القوم –كما سنبين إن قدر الله –عز وجل– لنا في سورة غافر–، ففي مرة يقول: يا أيها الملأ، ومرة يقول: يا قومي، فالنداءات تختلف على مقدار إحساسه بالخطر، ونزولهم للناس وكلامهم مع الناس على قدر إحساسهم بخطورة نزع السلطان من تحت أقدامهم.

{ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ } فكلمة { مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا } لم لست أنا؟ لم أنت؟! ما السبب؟ لم اختارك الله ولم يخترني؟ وثانيًا: الرحمن لم ينزل شيئًا.

وانتبه لكلمة (الرحمن)، فلم يقولوا {ما أنزل الله من شيء} كأنهم يريدون أن يقولوا: ما تقولونه ينافي الرحمة! فالرحمن لم يتكلم بهذا الكلام، أنتم تقولون آمنوا وإن لم تؤمنوا ستعذبون! هذا ينافي رحمة الله – كأنه هو المؤمن.

فهو دومًا سيتهمك بالتشدد وأن ما تقوله خالٍ من الرحمة، وهذه أشهر تهمة يتهم بها كل من يريد الإصلاح، يقال له: أنه متشدد وأن كل ما يقوله ينافي الرحمة.

فقالوا { مَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ } ما تقولونه أنتم ينافي رحمات الله –عز وجل–، فبالتالي الرحمن لم ينزل شيئًا، وكأن الرحمن –على قولهم– يريد للناس أن يفعلوا ما شاءوا، فلم يقولوا ما أنزل الرحمن ما تقولون ولكنه أنزل كذا وكذا، لا ، لم ينزل الرحمن أي شيء، فتكون الحياة عبثًا.

فهل الرحمن يريد للناس –والعياذ بالله– أن يعبثوا في الحياة؟ يفعلون ما يشاؤون ولا يحاسبهم الله –عز وجل–؟ هذه ليست رحمة، هذا عبث، فكل من يريد أن يفعل كل ما يهواه ثم تكلمه فيقول: ربنا غفور رحيم، فهذا عبث وليس رحمة.

لأن الرحمة من كمال العدل، أن الله –سبحانه وتعالى– يرحم المطيع، ومن كمال رحمته أن يعذب العاصي حتى لا يساوي بين العاصي والمطيع، فالناس تعتقد أنها ستفعل ما تهواه ويقولون: ربنا سيغفر لي! كيف يساوي الله هذا بذاك؟! { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ }[القلم:٣٥-٣٦] كيف ذلك؟ كيف يساوى هذا بذاك؟

فقالوا بعد قولهم {ما أنتم إلا بشر مثلنا} ونحن مثلكم لا فرق بيننا، فالشبهة الثانية {وما أنزل الرحمن من شيء}.

الشبهة الثالثة: شبهة "أنكم كاذبون"

والثالثة بما أنكم بشر مثلنا وبما أن الرحمن لم ينزل شيئًا ولم ينزل ملائكة، إذًا أنتم كاذبون.

وأخطر تهمة يحاول أهل الباطل دومًا إثباتها على المصلحين الكذب؛ لأنهم إن اتهموهم بأي تهمة أخرى لأمكن أن ينفوها بكلامهم، لكن لو حاولوا أن يثبتوا للناس أن المصلحين كاذبون، هذه هي الخطورة؛ لأنه لن يصدقك بعد ذلك حتى في دفاعك عن نفسك، لن يصدقك.

لذلك **أخطر تهمة هي تهمة الكذب، أخطر شيء يقع فيه المصلح هو أن يكذب، فيسقط**، يسقط تمامًا إن كذب -والعياذ بالله، فأخطر شيء هو الكذب، فما الدعوة إلا تبليغ عن الله، لذلك الرسل معصومون من الكذب، **فما الدعوة إلا تبليغ عن الله، فإن اتهموك بالكذب لن يصدقك الناس في أي كلمة تقولها**.

وجاءوا بها هنا بصيغة الحصر والقصر، قالوا: { إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ } كأن المعنى أن كل كلامكم كذب في كذب، لا يقولون أي شيء صواب، والعجيب أن هذه التهمة اتهموا بها الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم-، فأنتم كنتم تقولون عليه صادقًا والآن تقولون عليه كاذبًا؟ لأن المثل مضروب لقريش.

فعندما قالوا الثلاث جمل { مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ... } وانتبه أن الثلاث جمل جاءت منفية وفيها حصر، فيتكلمون بقمة الثقة { مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ }، { وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ } ولم يقولوا ما أنزل الله شيئًا بل قالوا {من شيء} و{من} هنا من كمال النفي، {إن أنتم إلا تكذبون}، فثلاث جمل وثلاث شبهات.

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

فماذا قالوا لهم؟ لم يستفيضوا معهم في الكلام، هم على يقين -ونحن قلنا أن هذا أهم شيء-، قالوا: { رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } وفي البداية قالوا { فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ } بدون اللام، وفي المرة الثانية قالوا: { رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } بلام التوكيد، حتى أن علماء البلاغة يقولون: **كلما زاد الإنكار زاد التوكيد**، كلما يزدادون إنكارًا يجب أن تزيد في مؤكداتك، فلما زاد إنكارهم وأضافوا الشبهات إلى التكذيب زاد تأكيد الرسل.

حسنًا ما معنى { رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ }؟ وكأن الرسل يقولون: أننا نفوض أمرنا إلى الله، سينصرنا الله قطعًا، هو يعلم صدقنا ولن يتركنا كأن هذا فيه نوع تهديد، فأنتم تقولون أننا كاذبون إذًا سترون ماذا سيفعل الله، الله –عز وجل– يفصل بيننا وبينكم، ربنا يعلم صدقنا ولن يتركنا وسيشهد لنا بفعله –سبحانه وتعالى– أننا على الحق.

فثبات أهل الإيمان دومًا ما يهز أهل الباطل، ودائمًا اضطراب أهل الإيمان يعطي ثقة لأهل الباطل، ثبات أهل الإيمان دائمًا ما يجعل أهل الباطل يترددون، فعندما وقف سيدنا موسى أمام فرعون قال: { إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ }[طه:٤٧] لم يقل إنا رسول ربنا، لكن قال:{ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ }، جئنا لك من عند سيدك { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ } [طه:٤٧-٤٨]

سيدنا موسى يقول له: لقد جئنا من عند سيدك لنأخذ بني إسرائيل فإن أطعت لن تعاقب، وإن لم تطع فستعذب، { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا} سيدنا ومولانا أخبرنا أن من عصاه أهلكه و{ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ } عندما سمع فرعون هذا الكلام خاف، هما اثنان جاءا أمام ملكه وحاشيته وقصره ويقولان هذا الكلام؟ { قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ}[طه:٤٩]! من أنتم؟ من تتبعون؟ على من تستندون؟ خاف من الثبات.

حدث نفس الموقف مع السحرة، أخافهم موسى أن يسحتكم ربكم بعذاب{ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ} [طه:٦١]، { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ}[طه:٦٢] بمجرد أن أخافهم سيدنا موسى حدث تنازع بين السحرة وبعضهم البعض، وقالوا كيف سنتصرف وأسروا النجوى، فظهر منهم من ثبتهم، الشاهد أنه دومًا ثبات أهل الإيمان وعدم تنازلهم وثباتهم على مبادئهم؛ هذه من أهم أسباب زلزلة الباطل.

فمجرد الثبات حتى الموت هذا نجاح، حتى وإن قتل أهل الحق، ثباتهم على الحق حتى الموت هذا هو النجاح، وكما قلنا أن حرامًا –حرام بن ملحان– قال: "فزت" بالرغم من أنه مات، ولكنه مات صادقًا لم يبدل ولم يغير، قال: "فزت ورب الكعبة"[٣].

فهنا { قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}.

وظيفة الرسل

وعلى العموم { وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، ما معنى { وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }؟ يقولون أن وظيفتنا معكم هي البلاغ المبين؟

دعونا نفهم وظيفتهم ونفهم ما ليس عليهم؛ فكلمة "إلا" تبين أن عليهم أشياء وليس عليهم بعض الأشياء الأخرى، فما الذي عليهم، وما الذي ليس عليهم؟

- ما ليس عليهم هو العقاب والإهلاك والإجبار فهذا ليس لهم، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[القصص:٥٦].

فكأنهم يقولون أن دورنا أن تكون الأمور واضحة، من الممكن بعد أن تتضح الأمور ألا يؤمن الناس، فليس معنى قلة عدم إيمان الناس، عدم وضوح الإيمان، أبدًا.

من الممكن أن تكون الأمور واضحة جدًا ولا يؤمنوا، فيقولون لهم: دورنا هو البلاغ المبين، عاقبة ذلك، متى ينزل العقاب؟ متى ستعاقبون؟ هل ستنزل صيحة؟ هل صاعقة؟ هل خسف؟ هل ستؤجلون؟ هذه ليست لنا، فدورنا الذي سيحاسبنا الله عليه هو البلاغ المبين، عاقبة ذلك يعلمها الله ولا نعلمها، ونحن ننتظر ذلك وأنتم تنتظرون ذلك.

لكن الدور المنوط بنا البلاغ بمعنى أن تبلغ دعوتنا إليكم وإلى كل فرد منكم، الوصول، فلن تحولوا بيننا وبين هذا الوصول، ودائمًا أهل الباطل غرضهم عمل حجب بين الدعاة والناس.

---

٣ [عن أنس بن مالك:] سَمِعَ أَنَسَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، يقولُ: لَمّا طُعِنَ حَرامُ بنُ مِلْحانَ، وكانَ خالَهُ يَومَ بئْرِ مَعُونَةَ، قالَ: بالدَّمِ هَكَذا فَنَضَحَهُ علَى وجْهِهِ ورَأْسِهِ، ثُمَّ قالَ: فُزْتُ ورَبِّ الكَعْبَةِ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٠٩٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٠٩٢)، ومسلم (٦٧٧)

كما قال ربنا وسائل منع الدعاة، الوسائل التي يستعملها أهل الباطل ليمنعوا الدعاة من الوصول للناس في سورة الأنفال لما أرادوا أن يمكروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}[الأنفال:٣٠]

يثبتوك أي يربطوك، فتظل ثابتًا في مكانك أيًا كان الثبات لا نريدك أن تتحرك وسط الناس. الثبات في هذا المكان سواء بالحبس، بالضرب، بالجرح؛ فالمهم أن يظل ثابتًا لا يتحرك، لأن من أغراض أهل الباطل عدم تحرك الداعية وسط الناس، { يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي }[الفرقان:٧] الداعية يمشي بين الناس، {ليثبتوك} لو فشل أن يثبتك يقتلك، ولو فشل في القتل يخرجك.

الشاهد أنهم يقولون أن علينا أن نبلغ لكل فرد، ولكل مكان، فبلغت دعوتهم أقصى المدينة { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ } في نفس الآيات، هم قالوا علينا البلاغ وبالفعل فعلوا البلاغ، لذلك قال الله هنا: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ} بالرغم من أن الآيات بدأت بقرية وسنتكلم عن هذا، { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ }، فقال من {أَقْصَى الْمَدِينَةِ} وليس من أقصى القرية، فانتشروا في دعوتهم وبلغوا أبعد من القرية، ووصلوا لأقصى المدينة وليست القرية فقط، هذا هو البلاغ.

النقطة الثانية: المبين، ما معنى المبين؟ أي الواضح، بمعنى لا ألقي بالمعلومة وأذهب لكن يجب أن تصل المعلومة وتكون واضحة، **هذا هو دور الدعاة ببساطة، الوصول الواضح، البلاغ المبين** إذا فعل الدعاة ذلك برئت ذمتهم، دورهم هو الوصول.

إذًا لو أحيل بين الدعوة والناس فلم يقوموا بدورهم بعد، لم يقوموا إما مقصرين أو ممنوعين ولهم الأجر، لكن دورهم هو وصول الدعوة ووصول ماذا؟ وصول بيِّن، يفهمه الناس، بلاغ مبين، بلاغ واضح.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾

لذلك لما قالوا {وما علينا إلا البلاغ المبين} قاموا بالفعل بدورهم، فلم يعرفوا أن يقولوا شبهات فقالوا {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} مللنا منكم، لم يعودوا يملكون القدرة على الرد، لم يعودوا قادرين على الرد على الرسالة والكلام، بدأوا يلجأون إلى الشبهات القدرية وليس الشبهات الكلامية، كانوا يأتون بشبهات في

الشرع، كأنتم لستم رسل...، أنتم بشر...، لم ينزل الرحمن.. هذا ينافي الرحمة...، فلما فشلوا في هذا واستمر الدعاة في الدعوة؛ لجأوا لشيء آخر.

الابتلاءات رحمة من الله سبحانه

قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، انتبه هذا الكلام متى قالوه؟ قالوه بعد البلاغ المبين مباشرة، إذًا أهل الباطل أولًا يلجؤون لتكذيب الرسل، لو فشلوا يلجؤون لشبهات على ما يقوله الرسل، لو فشلوا يلجؤون لأقدار تحيط بما يقوله الرسل، ليس في الكلام بل في الأقدار ما معنى ذلك؟

{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} غالب المفسرين على أن معنى الكلام أنهم ربطوا بين الابتلاءات التي تحدث في الواقع وبمجيء الرسل، الله -عزَّ وجلَّ- من سنته أنه عندما يرسل أو تأتي النذارة إلى أناس ولا يؤمنوا؛ ينزل عليهم ابتلاءات، كما قال الله -عزَّ وجلَّ- : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[الأعراف:٩٤]، كأن هذا سنة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أي: بعد أن يأتيهم النبي فيكذبوه، نأخذهم بالبأساء والضراء.

بمعنى أنه من رحمة الله عندما يأتي النبي ويكذبون، لا يأتي الإهلاك مباشرة، لا، بل يعطيهم فرصة بالابتلاءات، مثلما حدث مع قوم فرعون، أتى سيدنا موسى وأراهم الآيات فأعرضوا؛ فابتلاهم سنين: {الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ}[الأعراف:١٣٣] ما معنى مفصلات؟ أي ما بين ابتلاء وابتلاء فاصلة زمنية؛ حتى يعتبروا ويتفكروا.

بمعنى أنه من رحمة الله أنه أعطاهم ابتلاءات كثيرة وفرصة كي يفيقوا، وإن لم يفيقوا ينزل العذاب، فمن رحمة الله أو من سنن الله أن يأتي النبي فيكذبوه فيأتي البلاء فيكذبوه فإما أن ينزل العذاب أو -مثل في الأعراف- {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}[الأعراف:٩٥]، ما معنى ذلك؟

معناه أن الذي يحدث هذا أمر عادي، آباءنا كانوا هكذا أيضًا قليل من الضراء وقليل من السرَّاء، ماذا حدث؟ فعندما أتى الرسل وكذبوا، ابتلاهم الله -عزَّ وجلَّ- أهل القرية بابتلاءات، كي تجعلهم هذه الابتلاءات يقولوا ماذا؟ يقولوا: "يا رب".

أي أن الله ابتلاءهم وضيق عليهم في الأرزاق؛ حتى يقولوا: "يارب"، حتى يعودوا إلى الله -عزَّ وجلَّ-، فيقوم الناس ليستغلوا -الكبراء- يستغلوا هذه الأقدار، يقولون للناس: أترون؟ طوال حياتنا كنا نعيش جيدًا، لم يحدث بلاء إلا عندما أتى هؤلاء الناس، طوال حياتنا بدون الكلام الذي يقولونه هذا كانت الدنيا رائعة، لكن عندما أتى الحديث في الدين انظروا إلى الابتلاءات، وعندما قالوا رسل، ودين، وحلال، وحرام انظروا إلى الابتلاءات كيف أتت إلينا.

{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}، أي: تشاءمنا بكم، وتشاءمنا بمجيئكم، بل قال مجاهد في تفسير الآية {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}، أنه عندما رأوهم قالوا: أنتم لم تدخلوا في قرية إلا وينزل عليها العذاب، لم يدخل مثلكم في قرية إلا عُذب أهلُها. بمعنى أنهم يقولون لهم: أنتم عندما تذهبون إلى مكان ينزل فيه العذاب.

حسنًا فلماذا ينزل العذاب؟ هل لأنهم ذهبوا للمكان؟ أم لماذا ينزل العذاب؟ من أجل التكذيب ليس لأنهم ذهبوا، لا بل على العكس {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}[الأعراف:٩٦].

فهم استغلوا حدثًا يحدث فعلًا، لكن أتوا بسبب مخالف، **سبب نزول العذاب هو التكذيب**، وهذا هو ما قال الله عليه {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا}[يونس:٢١]، {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا}[فصلت:٤٠]، الله يعمل آيات؛ كي يتوب الناس، فيأتي أهل الباطل يستغلون هذه الآيات ويمكرون فيها ينسبونها لغير الله، ويستفيدوا منها، يستغلوها لصالحهم.

فالله جعل الابتلاءات القدرية هذه كي يتوب الناس، وهم يقولون: هذا بسبب الدين، وأنه إذا توقفنا عن الكلام في الدين ستصبح الدنيا بخير.

فعندما فشل زعماء الباطل من أن يصرفوا الناس عن الدعوة بالشبهات في الرسالة، بدأوا يأتون بماذا؟ يخيفون الناس على أرزاقهم هذا أكثر شيء يخيف الناس من الدين، بمعنى أن يقولوا لهم: خدوا حذركم إن مشيتم وراءهم ستُبتَلون في الرزق، وكل شيء سيخرب كما تشاؤون إذًا.

{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} أنتم سبب الشؤم والمصيبة في البلد، ومن أجل أن نحافظ على البلد، سنقتلكم {لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}[يس:١٨]، لام القسم أي: والله لنرجمنكم،

{وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قيل: وليمسنكم منا عذاب أليم قبل الرجم، بمعنى أننا سنعذبكم أولًا؛ كي تكونوا عِبرة للناس، ثم نربطكم في مكان أمام الناس، ونرجمكم حتى تموتوا.

انظروا إلى الخوف من انتشار الدين، إنهم يخافون على مصالحهم الشخصية، أهل الباطل وجهد الباطل يحافظ على مصالحهم الشخصية، كما قلنا: غالب الصراع من لحظة البداية هو صراع على الدنيا، صراع إقتصادي، صراع على الدنيا، من البداية عندما قال الشيطان لسيدنا آدم: خوفه فقال له: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}[الأعراف:٢٠]، يقول له: طاعة ربنا ستمنعك عن الملك.

وفي مكة عندما جاء النبي ﷺ خافوا على ملكهم، خافوا على الزعامة، صراع إقتصادي أولًا خافوا، فقبيلة قريش يضعون أصنامًا حول الكعبة كل صنم تابع لقبيلة، هذا يجعل معهم إلف وإيلاف مع كل القبائل وهم القبيلة الوحيدة التي تسير من مكة إلى اليمن، ومن مكة إلى الشام بغير أذية في وجود الأصنام، ستأتي أنت وتنزع الأصنام ستخرب علاقتنا بالناس، ستخرب التجارة، ستخرب سَدنة البيت، ستأخذ كل هذا منا؟ لا، لا يمكن، نظامهم كله سينهار.

فرفضوا، رفضوا ذلك وأبَوا لمصالحهم، فالزعماء يخافون على مصالحهم فيرفضون.

قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

فقالوا: {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُم لإن لَمْ تَنْتهواْ لنرْجُمَنكُم وليَمَسَّنكُم مِّنا عذابٌ أليم}، هددوهم بالقتل فماذا فعل الرسل؟ الآية التي تليها مباشرة، هل انصرفوا؟ قالوا ردوا، بالرغم أنهم قالوا لهم إن لم تسكت سأقتلك.

العذاب والابتلاءات بسبب غياب الدين والإسراف في المعاصي

تكلم الرسل قالوا: {طَائِرُكُم مَّعَكُمْ} ردوا على الشبهة القدرية "طائركم معكم" أي ما يحدث من عقوباتٍ بسببكم وبسبب ذنوبكم ومعكم أينما حللتم لو تركتم هذه القرية وذهبتم إلى مكان آخر وظللتم مشركين؛ سينزل عليكم العذاب أينما كنتم ولن تستطيعوا أن تفروا من قدر الله، أي مكان ستذهبون إليه سيحل عليكم العذاب؛ لأنه بسبب ذنوبكم، فطالما أنتم مذنبون، سينزل عليكم العذاب.

أبدًا لن تهرب من الله، لن تستطيع الاختباء من الله في أي مكان قالوا: {طَائِرُكُم مَّعَكُمْ} فحتى إن خرجنا، أو بقينا أو صمتنا أو تكلمنا؛ عذابكم سينزل، العقوبة ستنزل هربتم أو تركتم البلد بقيتم في البلد، العقوبة ستنزل عليكم الآن، بعد فترة، متأخرة، العقوبة ستنزل، {قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ} السبب ليس نحن بل السبب أنتم.

{أئن ذكرتم} إذًا الآن تربطون بين الابتلاءات والدين الآن تأتي تربط ما بين الاثنين، ولكن بدون الدين كان يحدث ابتلاءات، لماذا لم تكونوا تربطونها بالمعاصي؟ {أئن ذكرتم} تطيرتم بنا؟ عندما نكلمكم عن الله تخافون وتريدون أن تخيفوا الناس {أئن ذكرتم؟} أي لأجل أننا ذكرناكم بالله، تتشاءمون؟

هل يتشاءم أحد من دين الله -سبحانه وتعالى- كيف؟ **كيف تنسبون الابتلاءات التي ينزلها الله لوجود الدين؟ بل سببها غياب الدين.**

ودائمًا هكذا هم أهل الباطل عندما يحدث ابتلاء ولا يوجد دين، يقول هذا طبيعي {قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}[الأعراف:٩٥] هذا يحدث عادة في أي بلد تمر بمراحل ابتلاءات.

وعندما تأتي تكلمهم عن الدين ويحصل بلاء يقول: "أرأيت؟ هذا البلاء بسبب الدين" هو هكذا، بمعنى أنه عندما تأتي مصيبة يطيروا {يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ}[الأعراف:١٣١] إن تصبهم {الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ} بمعنى أنه عندما تأتي حسنة يقول: "هذا لأننا نستحقها" وعندما تحل مصيبة يقول: "هذا بسبب الدين".

هو يفسر الأشياء على هواه على شهواته يفسر الأمور على هواه؛ كي يخوف الناس من السير في طريق الدين.

فقالوا {طَائِرُكُم مَعَكُم أَئِن ذُكِّرتُم}: أي لأجل أن ذكرناكم تتهمون الدين؟ {بَل أَنتُم قَومٌ مسرِفون}.

انظر إلى الخطاب، لم يكن قبل ذلك يواجهونهم بأخطائهم، الرسل كانوا يقولوا نحن مرسلين نحن – يتحدثون عن أنفسهم– نحن علينا البلاغ المبين، لكن عندما بدأ {إنا تطيرنا بكم} والتهديد لم يخافوا قالوا: {بل أنتم قوم مسرفون} نعم أنتم مسرفون، أي أنتم تصرون على الإسراف، أنتم لا تعصون فقط، بل أنتم مسرفون في المعاصي وهذا الإسراف سبب لنزول العذاب عليكم.

{بل أنتم} ولم يقل بل أنتم مسرفون، قال بل أنتم ماذا؟ {بل أنتم قوم مسرفون}. أي كأن كلكم قومتكم على الإسراف، لا يوجد أي أحد منكم يقوم ويدعو إلى الله، لا يوجد أحد فيكم يسمع الكلام {بل أنتم قوم مسرفون} وهذا كافٍ في سبب نزول العذاب عليكم.

اللحظة هنا احتدم الصراع، لم يعرفوا، لم يعودوا يعلمون ماذا يقولون، التكذيب لم يأت معهم بنتيجة، الشبهات لم تأت معهم بنتيجة، الشبهات القدرية لم تأت معهم بنتيجة.

المرحلة الثالثة كانت الشبهات القدرية،

- المرحلة الأولى التكذيب،
- الثانية شبهات في الرسالة،
- الثالثة الشبهات القدرية،
- الرابعة التهديد بالقتل:

هذه أربعة مراحل، مرت معهم الأربع مراحل ولم تؤثر فيهم ومستمرين، بلاغ مبين، تعزيز مع بعضهم البعض، قوة، وضوح، يصِلون إلى الناس، يبينون الحق، لا يخافون، احتدم الصراع.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

أوشكوا على تنفيذ التهديد، في هذه اللحظة {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}، ربنا يرسل رجلًا {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ} الله –عز وجل– يغرس لهذا الدين بيديه –سبحانه وتعالى–، أنت لا تعلم من سينتفع بكلامك، من سينصر هذا الدين ،أنت لا تعلم، أنت عليك البلاغ المبين.

من سيحمل الدعوة؟ من سيحمل الدين؟ هذا ترتيب من ربنا -سبحانه وتعالى-، كما دبر الله -عزَّ وجل- للناس أرزاقهم، كذلك يدبر وصول الدين إليهم -سبحانه وتعالى-، أنت تقوم بما عليك، وربنا -سبحانه وتعالى يدبر-.

أنت لا تستطيع أن تتخيل كيف تسير الأمور أبدًا، آخر شخص يمكن أن تتوقع أن يسلم، يمكن أن يكون هو جندي من جنود الله، آخر مكان تتوقع أن يأتي منه الخير، فهم يركزون في القرية، الخير يأتي من أقصى المدينة، من أبعد مكان، وفي اللحظة المناسبة.

كما أتي في اللحظة المناسبة الرجل الذي حذر سيدنا موسى {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}[القصص:٢٠]، وفي اللحظة المناسبة ظهر مؤمن آل فرعون، وتكلم أمام الملأ في سورة غافر {إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك} في سورة القصص.

الذاتية في الدعوة

وهنا أيضًا في اللحظة المناسبة جاء رجل حينما هَمَّ القوم بقتل الرسل؛ لأنها آخر وسيلة يصلون لها سنقتلكم، {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} لاحظ هنا أنه جاء بنفسه لم ينتظر أن يذهب إليه الرسل وينادوا عليه.

هنا **يجب في وسط أجواء انتشار الظلمات أن يكون هناك ذاتية عند الناس**، ولا أحد يقول الدنيا كلها مظلمة والدنيا كلها باطل ومجتمع طال عليه الأمد، لا أحد يقول "في الحقيقة لم يقل لي أحد ماذا أفعل، لم يقل لي أحد كيف أنشر الدعوة، لم يعلمني أحد".

أنت تبحث، ونحن قلنا في أول الآيات المجلس الماضي {إنما تنذر من اتبع} ليس من تبع {من اتبع الذكر} قلنا في هذه الأجواء الوصول للحق يحتاج إلى مجهود {من اتبع الذكر}.

وهنا قال لهم عندما جاء يعلمهم أن الموضوع يحتاج مشقة {قال يا قوم اتبعوا} ابذلوا مجهودًا {اتبعوا المرسلين} فهو الذي جاء بنفسه، لديه ذاتية لم ينتظر أحدًا يقول له ماذا يفعل لا أعرف ماذا أقول لك.

(خذل عنا ما استطعت)[٤] فكر في أي شيء تفعله وأنت قادم لتصلي اجلب أحدًا، تحدث إلى جارك، علم أولادك افعل أي شيء، أنت يجب أن تتحرك، يجب أن يكون هناك ذاتية.

فالرسل هنا ليسوا هم الذين قالوا له ما يفعله، لم ينتظر قدوم الرسل بجانبه كي ينشئوا مجمعًا إيمانيًا ويعلمونه ويجلسوا معه عشر سنين ومن ثم يقولون له هيا تحرك.

لا، بل هو تحرك من تلقاء نفسه، يجب أن تكون هناك ذاتية ولن ينتشر الدين إلا بهذه الذاتية، وكأنها أيضًا رسالة للمؤمنين في ذلك الوقت، تحرك، قم بدور، انشر الدين، الرسول ماذا سيفعل لك؟ هو يتحرك وأنت تحرك، دافع عن النبي ﷺ، تحرك، وقد كان كذلك الصحابة رضوان الله عليهم.

---

٤ فلمَّا جاء نُعَيمُ بنُ مَسعودٍ مُسلِمًا، أوصاهُ أنْ يكتُمَ إسلامَه وردَّه على المشركينَ يُوقِعُ بينَهم، وقال له: إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ فخَذِّلْ عنَّا إنِ استطَعْتَ؛ فإنَّ الحربَ خُدعةٌ، فخرجَ نُعَيمٌ حتَّى أتَى بَني قُرَيظةَ -وكان لهم نَديمًا في الجاهليَّةِ- فقال: يا بَني قُرَيظةَ، قد عرَفْتُم وُدِّي إيَّاكم وخاصَّةَ ما بيني وبينَكم، قالوا: صدَقْتَ، لستَ عندنا بمُتَّهَمٍ، فقال لهم: إنَّ قُريشًا وغَطَفانَ ليسُوا كأنتُم، البلدُ بلدُكم، فيه أموالُكم وأبناؤُكم ونساؤُكم، لا تقدِرونَ على أنْ تَحوَّلوا منه إلى غيرِه، وإنَّ قُريشًا وغَطَفانَ قد جاؤُوا لِحربِ محمَّدٍ وأصحابِه، وقد ظاهَرْتُموهم عليه، وبلدُهم وأموالُهم ونساؤُهم بغيرِه، فليسوا كأنتُم، فإنْ رأَوْا نُهْزَةً أصابوها، وإنْ كان غيرَ ذلك لَحِقوا بلادَهم، وخلَّوْا بينَكم وبينَ الرَّجلِ ببلدِكم، ولا طاقةَ لكم به إنْ خَلا بكم، فلا تُقاتِلوا مع القومِ حتَّى تأخُذوا منهم رَهْنًا مِن أشرافِهم، يكونونَ بأيديكم ثِقةً لكم على أنْ تُقاتِلوا معهم محمَّدًا حتَّى تُناجِزوه، فقالوا له: لقد أشَرْتَ بالرَّأيِ، ثمَّ خرَجَ حتَّى أتَى قُريشًا فقال لأبي سُفيانَ ومَن معَه: قد عرَفْتم وُدِّي لكم وفِراقي محمَّدًا، وإنَّه قد بلَغَني أمْرٌ رأيتُ عليَّ حقًّا أنْ أُبلِغَكُموهُ نُصْحًا لكم، فاكتُموا عنِّي، فقالوا: نفعَلُ، قال: تعلَمُونَ أنَّ مَعشرَ يَهودَ قد نَدِموا على ما صنَعوا فيما بينَهم وبينَ محمَّدٍ، وقد أرسَلُوا إليه: إنَّا قد ندِمْنا على ما فعَلْنا، فهل يُرضيكَ أنْ نأخُذَ لكَ مِنَ القَبيلتَينِ -قُريشٍ وغَطَفانَ- رِجالًا مِن أشرافِهم فنُعطيَكَهم، فتَضرِبَ أعناقَهم؟ ثمَّ نكونَ معَكَ على مَن بقِيَ مِنهم حتَّى نستأصِلَهم؟ فأرسَلَ إليهم أنْ نعمْ، فإنْ بعَثَتْ إليكم يهودُ يلتمِسونَ مِنكم رَهْنًا مِن رجالِكم فلا تدفَعوا إليهم مِنكم رجلًا واحدًا، ثمَّ خرَجَ حتَّى أتَى غَطَفانَ، فقال: يا مَعشرَ غَطَفانَ، إنَّكم أصْلي وعَشيرتي وأحَبُّ النَّاسِ إليَّ، ولا أراكُم تتَّهِمونَني، قالوا: صدَقْتَ، ما أنتَ عندنا بمُتَّهَمٍ، قال: فاكتُموا عنِّي، قالوا: نفعَلُ، ثمَّ قال لهم مثلَ ما قال لقُريشٍ، وحذَّرهم مثلَ ما حذَّرَهم، فلمَّا كانت ليلةُ السَّبتِ مِن شوَّالٍ سنةَ خمسٍ كان مِن صُنْعِ اللهِ لرسولِه أنْ أرسَلَ أبو سفيانَ ورؤوسُ غَطَفانَ إلى بَني قُرَيظةَ عِكْرِمةَ بنَ أبي جَهْلٍ في نفرٍ مِن قُريشٍ وغَطَفانَ، فقالوا لهم: إنَّا لسنا بدارِ مُقامٍ، قد هلَكَ الخُفُّ والحافِرُ، فاغْدوا للقتالِ حتَّى نُناجِزَ محمَّدًا ونَفرُغَ ممَّا بينَنا وبينَه، فأرسَلوا إليهم: إنَّ اليومَ يومُ السَّبتِ وهو يومٌ لا نعمَلُ فيه شيئًا، وقد كان أحدَثَ فيه بعضُنا حدَثًا فأصابَه ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالَّذين نقاتِلُ معَكم محمَّدًا حتَّى تُعطونا رَهْنًا مِن رجالِكم، يكونونَ بأيدينا ثِقةً لنا حتَّى نُناجِزَ محمَّدًا؛ فإنَّا نخشى -إنْ ضرَسَتْكُمُ الحربُ واشتَدَّ عليكمُ القتالُ- أن تنشَمِروا إلى بلادِكم وتترُكونا والرَّجلَ في بلدِنا، ولا طاقةَ لنا بذلك منه، فلمَّا رجَعَتْ إليهم الرُّسُلُ بما قالت بنو قُرَيظةَ، قالت قريشٌ وغَطَفانُ: واللهِ إنَّ الَّذي حدَّثَكم نُعَيمُ بنُ مَسعودٍ لَحقٌّ، فأرسِلوا إلى بَني قُرَيظةَ: إنَّا واللهِ لا ندفَعُ إليكم رجلًا واحدًا مِن رجالِنا، فإنْ كنتُم تُريدونَ القِتالَ فاخرُجوا فقاتِلوا، فقالت بَنو قُريظةَ -حين انتهَتِ الرُّسُلُ إليهم بهذا-: إنَّ الَّذي ذكَرَ لكم نُعَيمٌ لَحَقٌّ، ما يُريدُ القومُ أنْ يُقاتِلوا، فإنْ رأَوْا فُرصةً انتَهَزوها، وإنْ كان غيرُ ذلك انشَمَروا إلى بلادِهم.

الألباني (ت ١٤٢٠)، فقه السيرة ٣٠٥ • هذه القصة بدون إسناد لكن قوله صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة صحيح متواتر عنه صلى الله عليه وسلم رواه الشيخان

القرب أو البعد من الرسل لا يضُر

فقال -عزَّ وجلَّ- {وجاء} بنفسه لم يطلبوه، {وجاء} ثم قال -ترتيب الجملة الطبيعي فعل فاعل وجاء رجل لكن هنا ربنا يقول وجاء ماذا؟- {من أقصى المدينة} قدم كلمة من أقصى المدينة لماذا هنا التقديم؟

بعض العلماء قال لطائف كثيرة منها، دليل أن الدعوة وأن جهدهم وصل إلى أقصى المدينة، أن الرسل اجتهدوا في الدعوة حتى بلغت دعوتهم أقصى المدينة، أو من توفيق الله -عزَّ وجلَّ- أن حمل دعوتهم إلى أقصى المدينة وأن القرب أو البعد من الرسل لا يضُر.

كما ذكر ابن القيم يقول آمنَ النجاشي ولم ير النبيﷺ، وصلى ابن سلول خلف النبي ولم يؤمن، بمعنى أنه كان يصلي في الصف الأول ابن سلول ولم يؤمن، والنجاشي آمن ولم ير النبي ﷺ.

القرب أو البعد لا يضر، القضية في الإيمان، وهذا من توفيق الله أنه يهدي أقوامًا بعيدين، النبي ﷺ يقول: (خير التابعين رجلٌ يقال له أويس)[٥] أفضل التابعين، سبق كل التابعين ولم ير النبي ﷺ، والتابعي الذي لم ير النبي ﷺ، أقصد أنه كان بعيدًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كل هذا لأنه كان بارًا بوالدته، (له أمٌ هو بارٌ بها)[٦] سبق كل هؤلاء، إذًا القرب أو البعد لا يضر.

أيضًا قيل من أقصى المدينة لماذا؟ دائمًا القرى الرئيسية والمحافظات الرئيسية والأماكن الرئيسية أهل الباطل يسيطرون عليها، كنا قد ذكرنا هذا المعنى في قول الله -عزَّ وجلَّ- {وكذلك جعلنا في كل قرية} كل قرية كل تجمع، ليس المقصود هنا بكلمة قرية أن التجمع السكني المجاور للمدينة، لا هو تجمع سكني استقروا فيه، غير البدو، البدو فيه ترحل، القرية فيها استقرار، المدينة أوسع، وتحرير المصطلحات هذا يحتاج إلى أبحاث طويلة.

---

٥ [عن عمر بن الخطاب:] إنَّ خَيْرَ التابِعِينَ رَجُلٌ يُقالُ له أُوَيْسٌ، وله والِدَةٌ وكانَ به بَياضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٤٢ • [صحيح]

٦ [عن عمر بن الخطاب:] إنَّ خيرَ التابعينَ، رجلٌ يُقالُ له: أُوَيسٌ، وله والدةٌ هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لَأَبَرَّه، وكان به بياضٌ، فمُروه فليَسْتَغْفِرْ لكم
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٠٦٤ • صحيح • أخرجه مسلم (٢٥٤٢) باختلاف يسير.

الشاهد أن الله يقول {وكذلك جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها} كل قرية مَركزية الأكابر يجتمعون فيها ويسيطرون على ثرواتها؛ لذلك أغلب الدول تجد أن اللصوص متركزين في العاصمة، أماكن التجارة يركزون عليها، ينتشرون فيها، الأماكن البعيدة هذه تكون أماكن هادئة، فيستطيع الناس أن يتحرروا من الضلال الإعلامي وإضلال الرؤساء والزعماء.

مرة أخرى...

كنا قد قلنا في سورة سبأ أنه من أهم أسباب صرف الناس عن دين الله هو مكر الليل والنهار الذي يقوم به المستكبرون ضد المستضعفين، وأنه يحدث بينهم شجار في النار ولا يفيق غالب المستضعفين إلا في جهنم والعياذ بالله.

ثم جئنا في سورة فاطر وقلنا أنه مهما فعل المستكبرون فستظل الفطرة محفوظة، **نأتي في سورة يس لنموذج لإيقاظ هذه الفطرة عند أناسٍ ابتعدوا عن هذا الضلال**؛ لذلك هنا يقول {وَمَالِيَ لَا أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي} ذكر الفطرة الثابتة فيه، أنه مهما بذل أهل الباطل لصد الناس عن الدين فطرتهم حينما يستمعون إلى القرآن تستيقظ.

فأتى ب "أقصى المدينة" الناس البعيدة عن مواطن الصراع وتركز الرؤساء بعيدًا عنها، لذلك قال قتادة كان يتعبد في غار في أقصى المدينة وهذه العبادة التي أثمرت عملًا.

بمعنى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– عندما كان يتحنث الليالي ذوات العدد [٧] كانت زادًا للعمل والنزول وليست مجرد اعتزالًا للناس؛ لأن الأولى خلطة الناس، الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم[٨].

٧ [عن عائشة أم المؤمنين:] كانَ أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصّادِقَةَ في النَّوْمِ، فكانَ لا يَرى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، فكانَ يَخْلُو بغارِ حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ، وهو التَّعَبُّدُ، اللَّيالِيَ أُولاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهْلِهِ ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حتّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ، فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي حتّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حتّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: أقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ حتّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنْسانَ مِن عَلَقٍ (٢) [العلق: ١ - ٥]، فَرَجَعَ بها رَسولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوادِرُهُ، حتّى دَخَلَ على خَدِيجَةَ، فقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حتّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، ثُمَّ قالَ لِخَدِيجَةَ: أيْ خَدِيجَةُ، ما لِي وأخْبَرَها الخَبَرَ، قالَ: لقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِي، قالَتْ له خَدِيجَةُ: كَلّا أبْشِرْ، فَواللَّهِ، لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، واللَّهِ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الحَقِّ، فانْطَلَقَتْ به

فهنا ربنا يقول {وجاء من أقصى المدينة} فكلمة من أقصى المدينة تدل على

١- انتشار الدعوة،

٢- أن الله -عز وجل- يهدي من يشاء حتى لو بعُد،

٣- أن الأماكن البعيدة قد تكون أثمر في الدعوة.

٤- تدل أيضًا رابعًا على المجهود الذي بذله هذا الرجل حتى يأتي، كل هذا لماذا كلمة من أقصى المدينة قبل رجل؟

تدل على المجهود الذي بذله أنه لم ينزل من بيتهم مشى خطوتين وجاء يدعو، لا بل أتى مسافة طويلة جدًا { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ }.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

إذًا قال الله -عز وجل- {وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى} ذكرنا أن تقديم كلمة "من أقصى المدينة" على "رجل" تدل على:

١. انتشار دعوتهم.

٢. القرب والبعد ليس شرطًا للهداية.

٣. المجهود الذي بذله حتى يصل.

٤. وجود الجو الهادئ الأطراف بعيدًا عن محاور الصراع أفضل لبدايات التربية.

خَدِيجَةُ حتّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزّى، وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِي أبِيها، وكانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العَرَبِيَّ، ويَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعَرَبِيَّةِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فقالَتْ له خَدِيجَةُ: أيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، قالَ ورَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ: يا ابْنَ أخِي، ماذا تَرى؟ فأخْبَرَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ ما رَآهُ، فقالَ له ورَقَةُ: هذا النّامُوسُ الذي أُنْزِلَ على مُوسى ﷺ، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، يا لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قالَ ورَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بما جِئْتَ به إلّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. وفي رواية: أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ وساقَ الحَدِيثَ بمِثْلِ حَدِيثِ يُونُسَ، غيرَ أنَّه قالَ: فَواللَّهِ، لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، وقالَ: قالَتْ خَدِيجَةُ: أيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٦٠ • [صحيح] •

٨ [عن عبدالله بن عمر:] المؤمِنُ الذي يُخالِطُ الناسَ ويَصبِرُ على أذاهُمْ، أفضلُ من المؤمِنِ الَّذي لا يُخالِطُ الناسَ ولا يَصبرُ على أذاهُمْ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٦٦٥١ • صحيح • أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢) باختلاف يسير، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٥٣)، والبيهقي (٢٠٦٦٩) واللفظ لها.

لكن كما قلنا هذه **العبادة الذي كان منعزلًا فيها بعيدًا عن الناس أثمرت عملًا وهذه هي العبادة الصحيحة**، العبادة التي تثمر مزيدًا من الانعزال في وقتٍ لا يجب فيه الانعزال هذا خطر إلا في وقت اضطر فيه للانعزال.

فقد استحب الشرع ذلك في مواطن معينة أو ستكون خاصة بهذا الشخص لكن الأولى أن يخالط، أما الذي لا يستطيع أن يصبر ويفتن، إذًا يمكن أن ينعزل.

خَلِّد ذِكراك

فقال الله -عز وجل- {وجاء} بنفسه لم ينتظر، {من أقصى المدينة رجلٌ} لم يذكر اسمه ولكن ذكر وصفه، لم يذكر اسمه ذكر {من أقصى المدينة} هذا البذل، ذكر وصفه وذكر بذله ووصفه وفعله ومقاله أربع أشياء:

١. ذكر بذله: {من أقصى}
٢. ووصفه {رجل}
٣. وفعله {يسعى}
٤. ومقاله {قال يا قوم}

بهذه الأشياء خلد ذكره لا باسمه ولا بنسبه، فبالأوصاف أو **بالبذل والأوصاف والأقوال والأفعال تُخلّد الذكرى، ويرضى الله -عز وجل- عن العبد لا بالأسماء ولا بالأنساب.**

القضية ماذا قدمت لدين الله -عز وجل-؟ ماذا بذلت؟ القضية ليست ما اسمه! هذا الرجل يتعلم منه الناس إلى يوم القيامة، خلد الله ذكره في القرآن ولا نعلم اسمه، كلها آثار مروية، حبيب النجار أو أيًا كان.

الذي ذكر في القرآن أنه رجل، يكفي كلمة {قال} لم يقل قالت هي ليست أنثى نعلم أنه رجل، القضية هنا ليس ذكر هذا وصف الرجولة والتكلم في هذه الأوقات من أوصاف الرجولة، التكلم في هذه الأوقات ونصرة الحق عند احتياج النصرة في وقت من هذه الأوقات، هذه هي الرجولة حقًا.

وكلمة الرجل في القرآن تحتاج إلى دراسة، لأن الرجولة غير الذكورة {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ} [النساء:١١] هذه الذكورة، إنما كلمة الرجولة ذكرت مع العبادة {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ}[النور:٣٦-٣٧] ذكرت مع نصرة الحق، ذكرت مع التحذير من الظلمة {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}[القصص:٢٠]، ذكرت في مواطن تحتاج إلى دراسة، فالذي يريد أن يتخلق بأخلاق الرجولة التي ذكرت في القرآن يتتبع هذه المواضع ويتخلق بها.

{وجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ} كلمة يسعى، القرآن عندما يصور لك مشهدًا من كلمات القرآن تستطيع أن تتخيل بقية الخلفية في المشهد، هذا الرجل بداخله شيء، هذا الشيء هو الذي أنزله وجاء به من أقصى المدينة، وجعله يسعى، وجعله يتكلم في وقتٍ يعلم قطعًا أنه سيقتل، هناك شيء بداخله، هناك دافع، هذا الصدق الذي بداخله، هم الدين الذي بداخله دفعه دفعًا.

هذه المشاعر عندما تتمكن من قلب إنسان، هذه الهمم عندما تتمكن من قلب الإنسان تتعب في مرادها الأجسام، فالأجسام يكون تابعًا لهذه الهمة، هذه الهمة حينما تتمكن من قلب الإنسان، هم الدين ونصرة الحق عندما تسيطر على الإنسان لا يفكر في كثير من العواقب الدنيوية لا الدينية.

التفكير في العواقب الدينية أمر مطلوب، أقول التي تعود على جسده بل تُقطع يده اليمنى ويفكر في الراية فيمسكها باليسرى، لا يفكر في يمينه التي سقطت لكن يفكر في الراية ألا تسقط، فيمسكها بيساره لم يفكر في يمينه التي سقطت كيف سأعيش؟ كيف سأفعل؟ ماذا سأفعل وأنا مقطوعة يدي؟ فكر في الراية فأمسكها باليسرى، فلما قطعت اليسرى لا زال يفكر في الراية لم يفكر في يده التي سقطت.

هذا الدافع هو الذي جعل الإنسان ينطلق لنصرة الدين دون تفكيرٍ في كثيرٍ من هذه العواقب، لذلك قال الله -عز وجل- في وضعٍ مثل هذا الوضع أيضًا في سورة البلد في وقتٍ يعذب فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ويؤذى فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- قال {لا أُقسِمُ بِهَٰذَا ٱلبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلبَلَدِ}[البلد:١-٢] أي يستحلون عرضك وبدنك وإيذاءك وأنت حلٌ بهذا البلد.

الإيمان في هذا الوقت قال عنه ربنا أنه اقتحام {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}[البلد:١١] الاقتحام لغة أي إلقاء النفس بدون تفكير أو رويّة { فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ } وأن هذه العقبة هي صعوبة في أولها وبعد ذلك اللذة، يجد الإنسان اللذة، هو أخذ القرار الذي يعد صعبًا.

لذلك أخذ القرار لم يستطعه الوليد حينما سمع القرآن، أيضًا في أوائل الدعوة في سورة المدثر فقال الله – عز وجل–: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}[المدثر:١٨] هذه هي مشكلته، أنه ظل يفكر ويقدر الأمور.

لو انتفت عنه هذه الخطوة لاقتحم، فهذا الرجل جاء يسعى لم يأت ماشيًا يفكر يقدم رجلًا ويؤخر أخرى، حسنًا وماذا بعد؟ عندما أذهب ماذا سأقول؟ لنفترض ماذا سيحدث؟ وماذا إذا لم يسمعوا؟ إذا كانوا قالوا للرسل {لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ} لثلاث رسل من عند الله، ماذا سيفعلون معي؟ وأنا من بينهم؟ قد تكون كلمته مسموعة عند أناس، فتخيل هذه الأشياء لم تجُل في صدره، **الذي منع هذه الخواطر أن تجول في صدره: الصدق الهم**.

انظر إلى تعامل الأب مع ابنه المريض: يقول أنا أدفع أي شيء، كي يُشفى ابني! تقول له ابنك مثلًا يحتاج إلى عملية في بلد معينة في الخارج، مال، أي شيء، هو لا يفكر الآن، هو كل ما يدور في تفكيره كيف يقوم هذا الابن؟ هذا وأكثر من ذلك هو تعامل الصادق حامل هم الدين لنصرة الدين، يفكر ما الذي أبذله لينتصر هذا الدين؟

هذه هي طريقة تفكير الصادقين أصحاب الهمم لنصرة هذا الدين فهذا الرجل جاء من أقصى المدينة {وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى} أي شيء يستطيع أن يقدمه يقدمه، يسعى.

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

بمجرد أن وصل قال، قلنا بذله ووصفه وفعله السعي، ومقاله قال "يا قوم" نسبهم إلى نفسه تألفًا، أنا منكم وأريد الخير لكم {يا قوم اتبعوا المرسلين} أقر أنهم مرسلون وهذا الخلاف الذي كان معهم في البداية، أنتم لستم مرسلين، لا نحن مرسلين، إنا إليكم مرسلون {ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون}.

أول ما بدأ أكد ما قاله الرسل {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} هؤلاء مرسلون وأنتم تعلمون أنهم مرسلون، {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} لم يقل اتبعوا هؤلاء، قال {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} أنتم تعملون أنهم مرسلون من الآيات التي معهم والبينات، أنتم تعلمون ذلك، {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}، {اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

تقييم الداعية

هنا يوجد نقطتين، ذكر الآية هذه فيها شيئين ،

- الأول أنه ذكر زيادة في الأوصاف،
- ثانيًا أنه كرر كلمة {اتبعوا}.

كان يمكن أن يقول "اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون" أو "الذين لا يسألونكم أجرًا وهم مهتدون"، تكرار كلمة اتبعوا أي **اتبعوا أيضًا مَن هذا وصفه حتى لو مات الرسل أو قتل الرسل اتبعوا من سار على نهجهم**.

أي اتبعوا المرسلين واتبعوا أيضًا من فيه هذه الأوصاف، ما هذه الأوصاف؟ وصفان مهمان جدًا لصدق الداعية، وهذا فطر في النفوس للتحقق من صدق الداعية هل هو صادق أم كاذب؟ هذا شيء مفطور في النفس.

النفس عندما تحب أن تقيم هذا الداعية هل هوصادق أم كاذب، رغمًا عن النفس البشرية تسأل نفسها سؤالين،

- السؤال الأول: هذا الراجل هل يطبق ما يقول؟
- هذا الرجل هل يريد شيئًا من وراء كلامه؟

{اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} لا يريد شيئًا من وراء كلامه
{وَهُم مُّهْتَدُونَ} يطبقون ما يقولون.

من الطبيعي للنفس عندما تحب أن تصدق، تحب أن تسمع أحدًا وتريد أن تعرف...، بل عندما يريدون أن يشككوا في أي أحد يقولوا هذا لا يعمل بما يقول أو هذا له هدف من وراء ما يقوله.

عندما يتحقق هذان الوصفان في شخص، فهذا دليل على صدقه، والنفس مفطورة على ذلك أن هذا صادق، هو ماذا يريد؟ هو يقول للناس صلوا وهو يصلي صوموا وهو يصوم، قولوا الحق وهو يقول الحق.

ثم يتعرض لكل هذا ولا يطلب مالًا، حسنًا، ماذا يريد؟ هذا لا يقول لهم اسمعوا كلامي، هو يقول اسمعوا كلام ربنا، حسنًا وماذا يريد؟ يقول لهم نتحاكم إلى كتاب الله ليس إلى كلامي، بفهمك، لا ليس بفهمي، بفهم السلف، لكن أنت ألا تريد شيئًا؟ لا، لا أريد شيئًا. حسنًا ماذا سيعود عليك؟ {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}. ماذا ستستفيد؟ {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}[يونس:٧٢] [هود:٢٩] [سبأ:٤٧].

لذلك سؤال الأجر قادح دائمًا، سؤال الأجر من وراء دعوتك قادح في صدقك، وإن لم يقدح على خلافٍ في أجرك، هو قادح في صدقك عند الناس.

في هذه الأوقات انتشار الظلمات والجهل لا تسأل الأجر، واصبر واحلم عليهم اثنين ثالثًا {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} {فَكَذَّبُوهُمَا} اصبر، بل بعدما قتلوه يتمنى لهم الخير.

إذًا هذه أيضًا من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية في هذه الأوقات، {اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} بل أثر مروي أظن عن قتادة: أول ما وصل إليهم هذا الرجل مؤمن آل يس، أول لما وصل، المعركة ما بين الرسل والقوم سيقتلوهم، أول لما وصل فسأل الرسل أمام القوم "هل تريدون من أجرٍ؟" قالوا لا، قال "هم مرسلون".

هذه علامة من علامات الصدق، هل تريدون شيئًا؟ أنتم ستموتون، أنا أسألكم هم سيقتلونكم، فهل تريدون شيئًا؟ لا، لا نريد شيئًا، قال "هم مرسلون" هؤلاء صادقون، طالما مهتدون يطبقون، فيقول لهم {اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ} بما يقولون.

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

ثم بدأ يتكلم عن نفسه ويتحدث عن مشاعره هو، "ومالي لا أعبد"، "ءأتخذ أنا"، "إني إذًا"، "إني آمنت" كل هذه يتكلم عن نفسه هو، كما قلنا في هذا الوقت أنت تتكلم عما تشعر، عما ترى، عن يقين أنت تشعر به، وبالتالي كلامك يصل للناس.

عندما يكون الكلام مجرد كلام أنت سمعته وتردده وأنت لم تلامس هذه المعاني فإنه لا يصل، كما قلنا – إن شاء الله إن ربنا قدر لنا البقاء واللقاء في مؤمن آل فرعون في سورة غافر– هو يتكلم صادقًا فيما يقول.

إن شاء الله نأجل بقية الآيات للمرة القادمة لكن نلاحظ كما نقول بعدما بدأ بالدفاع عن الرسل، بدأ هو يدعوهم.

إذًا أول شيء فعله: صدّق الرسل، وأثبت صدقهم بأدلة، بعدما أثبت الصدق بدأ هو يتكلم ويوضح حتى يكون امتدادًا لهم، أيضًا هذا يفيد التعزيز، فكلامه امتداد لكلامهم.

فبدأ يتكلم عن نفسه أولًا، ليس "وما لكم لا تعبدون الذي فطركم" بل {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي}، ثم عند الموت والكل سيموت فقال {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أنتم ستعودون إلى الله، ثم عاد إلى نفسه لم يقل "أتتخذون من دونه آلهة" تكلم عن نفسه قال {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ} أنا أنا {الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ} انتبه إلى أنه استخدم اسم الرحمن الذي استخدموه وأتى معه الضر، **أحيانًا يريد الله الرحمن الضر بأناس لأسباب، لحكمة**، فهم في البداية نفوا، أنتم تأتون تهددونا بالعذاب، والتهديد بالعذاب يتنافى مع الرحمن، قال لهم لا يجوز للرحمن {إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ}، انظر هو يرد عليهم، يرد على شبهاتهم.

إن شاء الله المرة القادمة نتدبر في ألفاظ هذا الرجل المليئة بالصدق والإخلاص والتي خلدها الله –عز وجل– إلى يوم القيامة. أسأل الله –عز وجل– أن يستعملنا ولا يستبدلنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.